التجارة

نبذة في اصلها وتاريخها

للشاب الاديب عبدالله افندي رزق الله شارّ في معتبة ولاية بيروت الجليلة

ما نبذ الانسان شريعة خالقهِ حتى اصبح على الارض هدفاً لنفحات القرّ ولفحات الحرّ وعُرضةً لأنياب الحيوانات وموثرات الطبيعة. فقام بادئ بدء يسعى بذاتهِ وراء حوائجهِ الضرورية كالمأكل والملبس والمأوى. فاقتات بثمار الاشجار ولحوم الصيد واكتسى باوراقها وجلودها. وأوى الى المغاور والكهوف فراراً من آفات الهواء وبراثن الوحوش الكاسرة. فلما ترقّى في المدنيّة كثرت ايضاً احتياجاتهُ المادّيّة والادبية. والانسان فطرة ميّال الى رغد العيش ورخائهِ وتنويع ملذّاتهِ فلا يكتفي اليوم بتأكل امس الدابر وملابسهِ ومساكنهِ ساعياً في الغد بتسهيل استحصالها واصلاحها حتى اصبحت هذه اللوازم بحراً لا يُترف وغوراً لا يُسبر

بيد انّ الانسان لو شاء ان يجمع بنفسهِ برضاً من عدّ هذه الحوائج المختلفة لتكلّف عرَق القربة وقضى عمرهُ ولم يأتِ باليسير منها فمن ثمّ اقتضت عليهِ الحاجة ان يتعاون مع ابناء جلدتهِ لينالها بينما يسعى هو في سدّ بعض لوازمهم. وبهذا التبادل تقوم الهيئة الاجتماعيّة

وقد لخّص فردريك بستيا الاقتصاديّ الشهير حالة البشر هذه فقال: «لنعطف نظرنا الى احوال الناس على اختلاف طبقاتهم ولنبحث عن حالة النجّار مثلاً فنرى هذا الانسان يقضي النهار كلّهُ بصقل الخشب وتجهيز ادواتهِ ومع ذلك لا يفتر عن بثّ الشكوى من حالهِ. على انهُ لو فكّر لرأى ان خدمتهُ هذه للهيئة الاجتماعيّة ليست بشيء ازاء الفوائد الجسيمة التي ينالها من جميع أفراد الجمعيّة. فاذا تتبّعنا حركاتهِ وسكناتهِ في يومهِ رأيناهُ يتردّى بلباسهِ عند نهوضهِ من فراشهِ وهذا اللباس مهما كان بسيطاً لم يُحصَل عليهِ الا بأعمالٍ كثيرة وتقلّبات عديدة واختراعات عظيمة. فانهُ يحتاج مثلاً الى قطن اميركة ونيل الهند وصوف فرنسة وكتّانها وجلود البرازيل وسختيانها وفتل الخيوط ونسجها وتاوينها ونقل كل هذه الاشياء الى بلاد متعددة

شاسعة والى . . . والى . . . ثمَّ اعتبرهُ عند تناولهِ لطعامهِ فتجد انَّ الخبز الذي يأكلهُ قد استلزم قبل وصولهِ الى هذه الحالة تمهيد الاراضي وحرثها واحاطتها بالسياج وتسميدها وزرعها وتنسيق مزدرعاتها وصيانة محصولاتها من السرقة والغارة وحصول الامنية واستحضار الادوات اللازمة لهذه الاشغال من الخشب والحجر والحديد والفولاذ وسواها من المعادن الى غير ذلك من الاعمال التي لا تعدّ ولا تحصى . فان وضع ابنهُ في المدرسة يرى العلوم فيها وان كانت ابتدائيَّةً ومختصرة للغاية نتيجة تحقيقات عميقة ومطالعات كثيرة ومعلومات واسعة . واذا خرج من بيتهِ سار مستريحًا في ازقةٍ متقنة الصنع والهندسة . واذا غصب احدٌ مالهُ او ملكهُ استرجع الحامون والمحاكم والضابطة حقوقهُ ودفعوا عنهُ كل تعدٍّ . واذا اراد السفر والتجوّل في البلاد رأى الطرق موثّرة والسُبل آمنة سهَّل قومٌ وعرها ومهَّدوا جبالها وملأوا اغوارها وسوَّوا ترابها ووسعوا انهارها واتزلوا فيها المراكب ومدّوا الخطوط الحديدية ووضعوا عليها العجلات واستعملوا لذلك قوى الحيوان والبخار فيقطع المسافات البعيدة بكل راحة وامان . ولا شك بان كلاً من هذه الاشياء يستلزم ترتيبات عظيمة ومعلومات واسعة فاذا قابل التجّار هذه الفوائد العظيمة بما يُجدي غيرَهُ من النفع بصناعتهِ رأى ان سعيهُ وراء صالح الجمهور لا يكاد يُحصى . وانهُ لو اراد استحصال مستهلكات يومٍ واحد لعجز عن ذلك في ظرف الف سنة . . . »

فيتبيَّن لك من كلام المقتصد الفرنسوي المشار اليهِ ان الانسان سدَّا لحاجاتهِ الكثيرة اعتاض لقاء بعض محصولاته بمصنوعات غيره فكانت المبادلة بين الافراد . وكما يحصل الافراد بهذه المبادلة نفعًا كبيرًا هكذا تستفيد امةٌ من خصائص غيرها فترسل هذه الى تلك قسمًا من المصنوعات التي ساعدتها على اتقانها وتنويعها وسائطُها المادّية والادبيَّة وحازت باعمالها قصب السبق وبلغت في تحسينها الغاية العليا . وتأخذ بدلها محصولات اراض خصَّها الله ببركة المزروعات ونفاستها . فكانت المبادلة القوميَّة . وهكذا تواصلت العلاقات بين الامم . وتجدَّدت اذ ذاك حياة المجتمع الانساني . وانفسح لهُ مجال الفائدة . وتوفَّرت اسباب الرفاهة والرخاء .

غير ان هذه الفائدة بقيت ناقصةً محدودة اذ كان الزراع واصحاب الحِرَف يأتون بمحصولاتهم ومصنوعاتهم الاسواق العمومية ليتبادلوها . فلا يخفى ما في هذا الامر من

المشقّة والصعوبة وضياع الوقت الثمين فضلًا عن اختلاف مطالب المتبادلين في ذلك الحين. وكثيرًا ما وقف لذلك دولاب المبادلة ونقصت فائدته. فاصلاحًا لهذا الخلل العظيم ورتقًا لفتقه شمّر فريق من الناس عن ساعد الهمة وقاموا وصلةً بين افراد الانسان وبين الامم المختلفة. فنقلوا مصنوعات زيد الى مقرّ عمرو ومحصولات هذا الى ذاك. وارسلوا سلعًا كثرت في قطرٍ الى غيره ندرت فيه او لم تحصل. فاراحوا بذلك الزارع والصانع واعطوا القوس باريها. فكانت التجارة وارباب التجّار

لا شكّ انّ للعلوم والفنون نصيبًا وافرًا في ترقي الحضارة وتزييد الرفاهة العمومية ولاصحابها الايادي البيضاء على العالم. لكنّ للتجارة وارباب ايضًا في هذا الترقي سهمًا فائزًا وان لم يكن لها القدح المعلّى. فبالتجارة يقوم نظام المبادلة. وتكمل آلتها وتجتمع ادواتها. وبواسطتها انتفع الغربي من جودة تراب الشرق ونفاسة محصولهِ وتوقد شمسه واستفاد الشرقي من مصنوعات الغرب واختراعاته وانواره

فالتجارة اذن من اكرم الصناعات واسقها باصحابها الى اعلى درجات اليسار بل هي اليمّ الذي استقرّت في جوفه جواهر الثروة ولآلئ النعمى. فأثرى من غاص عليها والتقط دُررها

٢

وقد نشدت هذه الضالّة جميعُ الشعوب الماضية والحالية وتفقدت منارتها. فاستفد كلٌّ منهم في ترويجها وُسعَهُ وأفرغ مجهودهُ. والتواريخ في ذلك حجج نيّرة وادلّة ساطعة باهرة. فضلًا عن ان اللجان العلميّة ما فتئت ترفّ لنا كلّ يومٍ من مواطن الاكتشافات والخفائر الحديثة آثارًا تكشف الغطاء عن التجارة القديمة ومواردها ومصادرها. وتنبئنا عمّا كان لها عند اهل القرون الغابرة من المقام الرفيع والمنزلة العُليا. فدجلة والفرات وتُرَعها المسدودة الآن تخبرنا بلسان الحال عن خطارة مُتّجر الاشوريين والكلدانيين مع المصريين وسائر الملل المجاورة. وعاديّات نينوى وبابل ترينا أسواق هاتين المدينتين العظيمتين مزدحمةً بالخلق ومخازنهما مملوءةً بالمنسوجات القطنيّة والصوفيّة والحلى والاثاث الفاخرة

والتوراة تعلمنا اشتغال اليهود بالتجارة رغمًا عمّا كان عليه هذا القوم في اوّل امره من الاشتغال بالزراعة والاستظلال تحت الكروم. فقد اخذتهم على عهد سليمان اريحيّة التجارة

فاندفعوا وراء المال والنشب وجمعوا ثروة عظيمة. فلما أتمّ الملك المشار اليه بناء الهيكل الشهير وأنشأ القصور في حاضرته جهّز السفن العديدة وارسلها مع عبيد حيرام العارفين بالبحر الى منابع الثروة واستجلب منها كثيرًا من الذهب والفضة. وفي الفصل التاسع من سفر اخبار الأيام الثاني ما يشهد لنا بذلك قال: « لم تُحسب الفضّة شيئًا في ايام سليمان. لان سفن الملك كانت تسير الى ترشيش (١ واوفير مع عبيد حيرام. وكانت سفن ترشيش تأتي مرّةً في كل ثلاث سنين حاملةً ذهبًا وفضةً وعاجًا وقرودًا وطواويس » ومن آثار سليمان بناءُ لتدمر لتكون مربطًا لتجارته (٢

واما محطّ رحال التجارة ومحورها فهي بلا شكّ فينيقيّة وكان سكّانها البواسل بلغوا في هذه المهنة حيث لا تبلغ الآمال والاماني. فحدّث ولا حرج عن تجارتهم التي انبسطت الى كل افقٍ وضربت في كل صوبٍ. وحينما كان لسان حال الانسان يقول:

لا اركبُ البحرَ اخشى عليَّ منهُ المعاطبْ
طينٌ انا وهو ماءٌ والطينُ في الماء ذائبْ

كانت سفائن الفينيقيين تمخر البحار الشاسعة مذللةً تيّارها ساعيةً فوق امواجها الزاخرة بمصنوعات العالم وسلعهم بينما كانت قوافلهم تطوي البيد وتغري الفيافي متطلّبةً في شاسع الارض ودانيها المحصولات المتنوعة. فشقّت سفنُهم عبابَ البحار والنجوم دليلُها غيرَ مبالية بالعواصف والانواء التي يخشاها تجّارة كل الاعصار (راجع المشرق ١: ٢١٧—٢٢٢). وانشأوا المستعمرات في البحر الاسود والارخبيل والاتلنتيك. واسفارهم الشهيرة حول قارة افريقية (٣ تشهد بانهم فحول هذه المعامع واسودها. فقبضوا في زمانهم على أزمّة التجارة بيدٍ من حديد. وامتطوا صهوة السيادة بعقلٍ ثاقبٍ وقلبٍ وطيد. فبلغوا من الغنى والسعة غايةً ليس وراءها مطّلَع لناظرٍ ولا زيادة لمستزيد. وكانوا يستجلبون من اسبانية وانكلترة الذهب والفضة والحديد والزفت وغيرها من المعادن والمحصولات. ويقلون الى انحاء العالم مصنوعات اليمن وبضائع الهند كالمرّ والبخور

١) هكذا سمّى الفينيقيون بلاد اسبانية ٢) راجع المشرق (١: ٤٩٦)
٣) حدثت هذه الاسفار العظيمة في زمان نيكا الثاني ملك مصر ودامت ثلاث سنين (راجع الجزء الرابع من تاريخ هيرودوت الفصل ٤٢)

والحجارة الثمينة والعاج والاخشاب العطرية. فضلاً عن ترويج سلعهم الزجاجيَّة الطائرة الشهرة ومحصولات سوريَّة المتنوِّعة. فافادوا العالم اجمع واستفادوا. وهاك ما روى ارسطو الفيلسوف اليوناني عن ثروتهم التجاريَّة. قال: « اتى الفينيقيون ترشيش فاستبدلوا زيتهم وغيره من بضائعهم بمقدارٍ كبيرٍ من الفضَّة حتى لم تسع سفنهم فصنعوا أدواتهم وآنيتهم كلَّها حتى أثاثر سفنهم من الفضَّة ». وقال حزقيال النبيّ في صور حاضرة تجارة الفينيقيين (٢٧: ٩) « جميع سُفُن البحر وملاَّحوها كانوا فيكِ لترويج موسمك. ترشيش متَّجرة معك في كثرة كلّ غنىً وبالفضة والحديد والقصدير والرصاص اقامت اسواقك »

ولم يقف الفينيقيُّون في مدن اوربَّة الساحليَّة بل توغَّلت قوافلهم في قلب البلاد كما دلَّت على ذلك آثارهم المستخرجة حديثًا. فقد اكتشف علماء الماديَّات في وسط فرنسة على ابنيةٍ خاصَّة بالفينيقيين (المشرق ١: ١٠٥١). وروى فريق من الحكماء ان اولئك البحارين الجسورين وطئوا ارض اميركة قبل كاشفها الجنوي كما تقدموا البرتغاليين الفي سنة في مياه جنوبي افريقية. فيجوز لي والحالة هذه القول بان الفينيقيين أشبه بانكليز زماننا من الليلة بالليلة والماء بالماء. وكان للصيدونيين والصوريين والبيروتيين السهم الاوفر والنصيب الاكبر من هذه المفاخر والمناقب. فهم دُعاة التجارة ورُسلها في شرق الارض ومغربها وهم محور تلك الحركة العظيمة وحجر رحاها. بل هم حياة الهيئة الاجتماعية القديمة ودمها وبلادهم قلبها وسفائنهم وقوافلهم عروق جسمها

والعرب ايضاً وفوا التجارة حقَّها فسهَّلوا عسيرها وقرَّبوا بعيدها. وقد مرَّ في المشرق (١: ٨٦٥) مقالة حسنة في الاسواق التي كانوا يقيمونها في انحاء بلادهم ايَّام الجاهليَّة وفي الاسلام. وجاب رحَّالتهم شرق الارض وغربها. وأسفار ابن بطوطة والمسعوديّ وابن جبير وسليمان التاجر وغيرهم اشهر من نارٍ على علم. ففي الهند والصين واليابان راجت تجارتهم. ومن الاندلس نفذت الى اوربَّة سلعهم ومصنوعاتهم. وفي انحاء المعمورة انتشرت علومهم ومعارفهم. على انَّ قصصهم وحكاياتهم الخياليَّة كاسفار السندباد البحري وعجائب الف ليلة وليلة تُظهر ايضاً كلَف هذا القوم النجيب بالاسفار العجيبة ورغبتهم الى التجارة والاطلاع على احوال العالم واخلاقهم

والعرب ايضاً لم يبقَ بمعزلٍ عن التجارة وتقدير فوائدها. فقد اعتنى الرومان بفتح طرقها وتأمين سابلتها وترويج سوقها في ممالكهم الوسيعة. وكان المستحصلون يقيمون

الاسواق التجاريّة في محالَّ واوقاتٍ معيَّنة فيتقاطر الاهلون اليها من كل صوب ويبتاع كل منهم ما لزمهُ . ومن الاسواق المشهورة سوق الرها كانت تجتمع فيها امتعة الخافقين وخمدت في القرون المتوسطة الحركة التجاريّة بين الاوربيين وربَّما اعدَّ بعضهم التجارة صنعةً جديرة بالاسافل وانها تبخس بقدر من يزاولها . غير ان السواد الاعظم منهم لم يلبثوا ان يقدّروا قدرها ويتعاطوا انواع الحِرَف والصنائع حتى سدُّوا نفقات حكوماتهم فهبَّت التجارة من رقدتها وبلغت منزلتها الحاضرة . والله الموفق الى الصواب

طرفةٌ تقرأ في بدء الصيام

للاب هنري لامنس اليسوعي

ليس مرادنا في هذه النبذة انَّ نُلقي على قرَّائنا عظةً . وانَّما نسرد لهم قائمةً جديرة بالاعتبار تفيدهم ما ينفقونهُ مدَّة العُمر في سبيل الهضم وفي خدمة البطون

١

مدار كلامنا على رجل صحيح البنية يعيش عيشة مرتبة مدَّة سبعين سنة . فترى اي كميَّة من الاطعمة يُنفِذ في بلعومهِ طول هذا الزمان وكم تهضم معدتهُ من المآكل ؟

فلنبدأ بالخبز وهو القوت العاديّ وطعام الناس على اختلاف طبقاتهم واسنانهم . فانَّ معدَّل ما يأكل منهُ الرجل الفرد في نهارهِ كيلوغرام (نحو اربع اواقٍ ونصف) ما خلا المعجونات من الدقيق كالكعك والقطائف وما شاكلها . فاذا جُمع ما أكولهُ من الخبز في سبعين سنة وجدنا انهُ يوازي نحو ١٢٧٥٠ كيلوغرام ولو اصطنعنا من ذلك خبزة كبيرة لأشبهت عمودًا ضخمًا سمكهُ كسمك رجل متوسّط القامة وطولهُ كثلاثة أضعافهِ وعرضهُ كضعفيهِ . ويُقتضى حجرةٌ مساحتها ٤٠ مترًا مكعبًا كي تودع فيهِ مثل هذه الخبزة

امَّا البطاطا فانَّ ما يبتلعهُ منها الانسان في حياتهِ يتجاوز قامة رجل في سمكهِ وقامتين ونصف في علوّهِ . وقس على ذلك البقول والخضرة التي يأكلها الانسان مدَّة عمرهِ فانَّ ما أكولهُ من الحمّص والفول مثلًا يوازي سنفًا طولهُ اكثر من ميل . وهلمَّ جرًّا